سلسلة (رحلات وغرائب)
الكتاب الأول



ابن بطوطة

في بلاد الهند

سلسلة "رحلات وغرائب"
الكتاب الأول

ابن بطوطة في بلاد الهند

اقتباس: فدوى التميمي

فهـــــرس

الفصل الأول

فى حضرة السلطان

حدث ذلك منذ حوالى ٦٠٠ سنة . كان سلطان المغرب يجلس فى حجرة واسعة من حجرات قصره الكبير ، وكان الوقت بعد الظهر بقليل ، وكان الوزراء والندماء وأفراد الحاشية يجلسون حول السلطان وهم يتحدثون ويمزحون ويضحكون . ووقف بوسعيد يعرض أمامهم ألعابه

السحرية وحركاته البهلوانية . ثم راح يروى لهم قصصه المسلية ونوادره المضحكة . ودخل بشير يحمل عصير التمر هندى . فدار عليهم بشرابه الحلو اللذيذ . وأخذ الجميع يشربون ويضحكون . وتوقف السلطان عن الضحك فجأة كأنما تذكر شيئاً ، ثم التفت إلى بشير وسأله :

ـ يا بشير ! هل سمعت عن الرجل الذى يحيي الموتى ويلعب مع الجن ؟

ـ يحيي الموتى ؟ لا يا مولاى .

ـ قيل لى إن فى البلد رجلا سافر إلى الهند ووصل إلى جزيرة الشياطين، ورأى هناك أناسا يخرجون من القبور .

ـ آه . الشيخ محمد بن بطوطة . لقد سمعت بعض القصص التى تروى عنه . إنهم يقولون إنه قضى فى السفر أكثر

من عشرين سنة ، وأنه رأى كثيرا من العجائب . وأنا متحير يا مولاى ، فكثير من هذه القصص لا يكاد يصدقه العقل . ولكنهم يروون عنه أيضاً ما يشهد بأنه رجل عالم على جانب كبير من الفضل والتقوى .

ـ وأين يعيش هذا الرجل يا بشير ؟

ـ فى طنجة يا مولاى .

ـ أرسل فى طلبه حالا فانى أحب أن أراه .

وخرج بشير من القاعة التى كان يجلس فيها السلطان وأرسل إلى الشيخ محمد بن بطوطة من يحضره من طنجة .

ولبى ابن بطوطة دعوة السلطان وجاء إلى مدينة فاس ، فاستقبله السلطان ورحب به ، ثم قال له :

ـ لقد قيل لى يا ابن بطوطة إنك سافرت كثيرا .

وسمعت أن لك قصصاً غريبة ، وحوادث عجيبة فى سفرك الطويل . فهل هذا صحيح ؟

ـ نعم يامولاى . لقد رحلت كثيرا فرأيت ، وسمعت ، وشاهدت . زرت مصر ، والسودان ، وبلاد الشـــام ، والحجاز ، وبلاد الترك ، والهند ، وبلاد المغول ، والصين ، وغيرها من البلدان . ورأيت فيها كلها مالم يسمع به إنسان .

ـ حسنا ، ارو لنا ما شاهدت .

ـ لقد شاهدت كثيرا يامولاى ، فماذا تحب أن تسمع ؟ أتحب أن تسمع ما شاهدته فى بلاد العرب ؟ أم فى بلاد الصين ؟ أم فى بلاد الهند ؟ أم فى بلاد المغول ؟

ـ الأمر لك يا بن بطوطة . ولـكنى سمعت أنك شاهدت فى بلاد الهند كثيراً من العجائب . فحدثنا عن



لقد شاهدت كثيراً يا مولاى ، فماذا تحب أن تسمع ؟

بلاد الهند .

ـ سمعا وطاعة يا مولاى .

وبدأ ابن بطوطة يحكى للسلطان قصة رحلته فى بلاد الهند ، وما رآه فيها من العجائب ، وما قاساه من الأهوال ، وما لاقاه من المصائب .



الفصل الثانى

مع القافلة

قال ابن بطوطه

كنت فى الشــام عندما فكرت فى السفر إلى الهنـد يامولاى . فركبت مع قافلة من التجار كانت مسافرة إلى هناك . وبدأنا الرحلة ، وسارت بنا القافلة . سارت بنـا مسافة طويلة قطعنا فيها بلاد الترك وجبال الأناضول ،

ومررنا ببلاد التتر والمغول . سارت بنا القافلة أياما وليالى بين سهول تكسوها الأعشاب ، وجبال تغطيها الثلوج، وأودية تتخللها الأنهار. قاسينا في هذه الرحلة الحر والبرد، وصبرنا على الحمى والمرض .

وفى يوم من الأيام جاء الفرج ونادى المنادى : أبشروا أيها المسافرون لقد وصلنا . أريحوا دوابكم واستريحوا فهذا هو نهر السند العظيم . وهنا التفت إلى صديقى الحاج مسعود وقال لى

ـ هيا بنا يا أبا القاسم . لقد وصلنا الحدود . كيف حالك الآن؟

فقلت : الحمد لله يا أخى . لقد خفت الحمى .

ونزل صديقى الحاج مسعود عن دابته وأقبل نحوى

يساعدنى على النزول . وسرت معه إلى أقرب شجرة. فربطنا دوابنا ، وأنزلنا متاعنا ، ثم أسرعنا إلى ماء النهر فغسلنا وجوهنا . وانتشر المسافرون فى الوادى ؛ استلقى بعضهم قرب الشاطىء ، وبعضهم تحت الأشجار . لقد أنهكهم الحر ، وأجهدهم السفر ، وأضعفتهم الحمى .

وكان ركاب القافلة مجموعة كبيرة من الناس جاءوا من بلاد مختلفة : بعضهم جاء من مصر ، وبعضهم جاء من الحجاز ، وبعضهم من الصين ، وبعضهم من الشام واليمن. وكانت هيئاتهم مختلفة كذلك ؛ بعضهم كان يلبس السروال، وبعضهم يلبس الجبة ، وبعضهم يلبس القفطان . ولكنهم جميعا كانوا متفقين على السفر إلى بلاد الهند .

وجلست أنا مع الحاج مسعود تحت شجرة ،

وأخرجنا ما معنا من الزاد وبدأنا نأكل . كان الحاج مسعود رجلا تقيا صالحا من بلاد اليمن . كان يشتغل بالتجارة ، ولذلك كان يحب السفر ويكثر من التنقل بين البلدان فأحببته وأحبنى وتمكنت صلتى به ، ولولا اهتمامه بى ورعايته لى فى السفر لقضت على الحمى اللعينة فى الطريق.

ولما انتهينا من الطعام جلسنا نتحدث ، فقلت للحاج مسعود وقد كدت أختنق : ما رأيك فى هذا الحر ياحاج مسعود؟ لو أن الحمى عاودتنا فلا أشك أنها ستقضى علينا هذه المرة !

فضحك الحاج مسعود وقال :

أنت تقول هذا يا أبا القاسم ؟ أنت الذى قضيت عمرك فى السفر والتجول ؟ صبراً صبراً لقد هان الأمر ،

ولن نبقى هنا أكثر من يومين أو ثلاثة، وليس بيننا وبين بلاد الهند سوى مسيرة خمسين يوما فقط.

فقلت مستغربا: خمسين يوما؟

فقال: نعم خمسين يوما تصل بعدها بلاد الهند؛ فتقابل السلطان وتتصل بالعلماء، وتتعرف بالقضاة ورجال الدين والفقهاء.

فقلت: ربنا كريم يا حاج مسعود، فهذا ما تمنيته وما جئت من أجله. هيا بنا الآن، فانى أريد أن أصلى العصر وأستريح.

وقمت إلى النهر فتوضأت وصليت. ورأيت المسافرين وقد تفرقوا جماعات، بعضهم يأكل، وبعضهم يغتسل، وبعضهم يتحدث عن الوادى العظيم: وادى نهر السند أو وادى المياه الخمسة كما يسميه أهل البلاد. إنهم يعتبرونه

من أعظم الأودية فى الدنيا لاتساعه وكثرة المياه فيه .

وبينما نحن على هذا الحال أقبل علينا جماعة من أهل البلاد فسلموا علينا وبدأوا يسألون كل واحد منا عن أصله وقصده، وبلده وعمله، وعدد أصحابه وخدمه ودوابه.
والتفتُّ إلى أحدهم أسأله عن سبب هذا السؤال فقال

ـ لا تخف ياأخى، فنحن مخبرون، وظيفتنا أن نكتب إلى أمير البلاد فى العاصمة نخبره بوصولكم . إنها عادة معروفة عندنا نستخدمها مع كل غريب يدخل البلاد .

وأقمنا فى الوادى بعد ذلك يومين. وفى اليوم الثالث عاد المنادى يقول :

ـ استعدوا أيها المسافرون فسنرحل إلى ملتان .

وساد الهرج بين المسافرين. وقام كل واحد يحزم

متاعه، ويعد أحماله، ويتفقد أصحابه وغلمانه ودوابه. والتفتُّ أبحث عن الحاج مسعود فلم أجده. فدهشت وسرت نحو الشاطىء أبحث عنه، وإذا به يبدو من بعيد وقد نزع ثوبه وتعرى، ولف فوطة على وسطه وأخرى على كتفه. ولما وصل قال وهو يضحك: لم أستطع أن أتحمل الحر يا أخي فنصحني بعض المسافرين أن أبل هذه الفوطة بالماء واجعلها على كتفي كما ترى لتخفف عني شيئاً من هذا الحر.

وركبنا دوابنا وسارت بنا القافلة من جديد. مضت تقطع السهول وتصعد الجبال، حتى اجتزنا نهر السند وبدأنا نشق طريقنا وسط الغابات الكثيفة. كان الطريق وعراً شائكا مخيفاً. وكانت ترتفع من حولنا أصوات

غريبة لا ندرى حقيقتها : أهى أصوات حيوانات ، أم أصوات طيور ؟ فسرنا نلتفت يميناً وشمالا . وفجأة دوى فى الغابة صوت اهتز له المكان . فأجفلت الدواب ، واضطربت القافلة ، وخاف المسافرون ، وتفرقوا .

وصاح بعضهم : الكركدن ! الكركدن !

وأقبل علينا من بعيد حيوان ضخم ، كبير الجثة ، أسود اللون . رأسه أكبر من رأس الفيل . له قرن واحد بين عينيه يبلغ طوله نحو مترين . ولما اقترب منا اعترض طريقه بعض الفرسان، فما كان منه إلا أن ضرب الفرس بقرنه فقتله . ودار حول نفسه مرتين، ثم تركنا وعاد مسرعاً من حيث أتى . أما نحن فقد عدنا نلم شملنا ، ونتفقد أصحابنا وغلماننا ، ولما تجمعنا راحت القافلة تواصل سيرها من جديد



السكركدن ! السكركدن !

الفصل الثالث

فى ملتان

ملتان يا مولاى عاصمة بلاد السند . وقد وصلنا إليها بعد أن قضينا فى السفر عشرة أيام متوالية . فاستلقينا على الشاطىء بعد أن أنهكنا التعب ، وأجهدنا الخوف والحر . وفى الصباح استقبلنا صاحب البريد وسألنا عن أسمائنا وبلادنا . لقد كان صاحب البريد مخبراً يبعث للسلطان بكل

ما يحدث فى البلاد . فانتهزت هذه الفرصة وسلمت عليه ، وعرفته بنفسى ، وطلبت منه أن يساعدنى فى الدخول على أمير البلاد ، فوعدنى بذلك . وفى اليوم التالى توجهت معه لمقابلة الأمير .

وكان أمير ملتان من كبار الأمراء وفضلائهم . فعندما رآنى قام إلى وصافحنى ، ورحب بى ، فأهديت إليه فرسا ومملوكا وشيئا من الزبيب ، وهو من أعظم ما يمكن أن يهديه إنسان إليهم . فأمر باستضافتنا فى دار خارج المدينة ، لا ينزل فيها أحد إلا بأمر السلطان .

وبقينا فى ملتان فترة طويلة عرفت فيها المدينة جيداً ، ورأيت فيها كثيراً من الغرائب . رأيت فيها مزاراً مقدساً للاله بوذا يلبس جلداً أحمر لا يظهر منه إلا عينان

هما عبارة عن جوهرتين كبيرتين، وقد تربع على سرير، ووضع ذراعيه على ركبتيه، ولبس على رأسه أكليلا من الذهب. ويتقدم إليه الناس عادة بالأموال والنذور، ويحج إليه كل أهل السند، فيطوفون حوله ثم يحلقون رءوسهم ولحاهم عنده.

وتعرفت فى المدينة أيضاً على كثير من القضاة ورجال الدين والعلماء، أذكر منهم القاضى قوام الدين، وكان مسافراً معنا إلى بلاد الهند، ليعمل عند السلطان. فلما مضى على سفرنا شهران جاء حجاب السلطان من الهند لاستقبال قوام الدين فسألنى بعضهم:

ـ ما اسمك؟

فقلت: الحاج محمد بن بطوطة.

فقال : وما بلدك ؟

قلت : طنجة .

فاستغرب وقال : طنجة ؟ وأين هذا البلد ؟

فقلت : فى بلاد المغرب يا سيدى

فهز رأسه وقال :

وما الذى جاء بك إلى هذه البلاد ؟

قلت : جئت لأخدم السلطان وأقيم عنده .

وكان سلطان الهند لا يسمح لأحد بدخول بلاده إلا إذا كان قادما للإقامة . فلما عرف أنى سأقيم كتب علىَّ وعلى من يريد الإقامة من المسافرين تعهداً بذلك .

وكانت بلاد السند تتبع فى حكمها سلطان الهند . وكان بين ملتان عاصمة بلاد السند وبين دلهى عاصمة الهند مسيرة

أربعين يوماً على الأقل ، أربعين يوماً يقطعها المسافر فى بلاد الهند الواسعة . إنها أرض طيبة كريمة يزرع أهلها فى فصل الخريف السمسم وقصب السكر والحبوب. ولشدة الحر ينضج فيها المحصول بعد شهرين فقط . فيجمعونه ويزرعون مكانه محصولات الربيع كالقمح والحمص والعدس والشعير . أما الأرز فهو أكثر المزروعات، ويزرعونه ثلاث مرات فى السنة .

وقد رأيت لسكان هذه البلاد عادات غريبة ، فقد صادف أن نزلنا فى أثناء رحلتنا بقرية مات فيها سبعة رجال . وكان لثلاثة من هؤلاء الرجال زوجات رفضن الحياة بعد موت أزواجهن ،واتفقن على إحراق أنفسهن . وعادة الإحراق هذه عادة شائعة بين أهل



فأشعلت النيران ، والتف حولها حاملو الطبول

هذه القرية وكثير من القرى المجاورة، وهم يعتبرون المرأة التى تحرق نفسها وفية مخلصة. أما التى لا تحرق نفسها فتلبس الملابس الخشنة وتقيم فى بيت أهلها حزينة كئيبة.

وقد رأيت من أمر هؤلاء الزوجات الثلاث عجبا. فقبل اليوم المحدد للحرق أقمن ثلاثة أيام فى رقص وغناء وطرب، وجاءت النساء لوداعهن من كل جهة. وفى اليوم الرابع تزينت كل واحدة منهن وتعطرت، وركبت فرسا. وأحاط بها أهلها وأقاربها وأصحابها، وساروا معها إلى خارج القرية تتقدمهم الطبول والأبواق. وظلوا سائرين على هذا الحال حتى وصلوا مكاناً مظلماً، كثير المياه والشجر. فنزلت النسوة الثلاث عن الخيل، ونزعت كل واحدة ملابسها وذهبها، ولبست ثوباً خشناً. وراح

الرجال يعدون المكان . فأشعلت النيران ، والتف حولها حاملو الطبول والأبواق، ووقف قرب النار رجال يحملون الحطب. وأمسك البعض بملحفة كبيرة يريد أن يحجب بها منظر النار عن أعين النسوة . وتقدمت إحدى النساء لتحرق نفسها ، فلما رأت الملحفة ألقت بها وصاحت : ابعدوها عنى ، أنا لا أخاف النار . ثم جمعت يديها فوق رأسها ، ورمت بنفسها فى النار. فأسرع الرجال الذين يحملون الحطب يلقونه عليها حتى لا تتحرك. وهنا ارتفع صوت الطبول والأبواق وزاد اشتعال النار .



الفصل الرابع

فى دلهى

دلهى يا مولاى مدينة عظيمة . إنها أجمل مدن الهند إن لم تكن أجمل مدن الشرق . إنها مدينة كبيرة المساحة كثيرة العمارة . وقد أخذت اسمها من المدينة القديمة التى كان الهنود قد بنوها فى الأزمنة الماضية . فلما جاء المسلمون إلى الهند وفتحوا المدينة بنوا إلى جانبها ثلاث

مدن أخرى متصل بعضها ببعض . وأحاطها سلطان الهند بسور عظيم، ليس له نظير، يبلغ عرضه ٨ أمتار. وبنى فيه بيوتاً كثيرة يسكنها الحرس ، ومخازن يوضع فيها الطعام ، وغرفاً تحفظ فيها آلات الحرب ورمى النار . ويستطيع الرجال والفرسان أن يسيروا داخل السور من أول المدينة إلى آخرها .

وكان سلطان الهند حين وصلنا إلى المدينة غائباً عنها فبعث إلينا الوزير أصحابه ليقابلونا . وعين للقاء كل منا واحداً من درجته . فجاء للقائى بعض الشيوخ والفقهاء ورجل اسمه حاجب الغرباء . وأخذنى الحاجب إلى دار الضيافة فوجدت فى هذه الدار كل ما أحتاج إليه : فراشاً وبساطاً ، وحصيراً ، وسريراً ، وأوانى للطبيخ . وعيَّن

لى الحاجب رجلين: أحدهما جزار، والآخر بائع دقيق. وقال لى: خذمن هذا كذا وكذا، وخذمن هذا كيت وكيت. وإذا احتجت إلى شىء آخر فنحن مستعدون لخدمتك.

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى الوزير وسلمت عليه، فناولنى صرتين فى كل صرة ألف دينار.

وانتهزت فرصة غياب السلطان فرحت أجول فى البلد. وكنت قد سمعت أن فى دلهى مسجداً يعتبر من أجمل المساجد الإسلامية. وقد أدهشنى فعلا جماله واتساعه، كما لاحظت عند بابه صنمين من النحاس مطروحين على الأرض يدوس عليهما الداخل إلى المسجد والخارج منه. فلما سألت عن أمرهما قيل لى إن هذا المسجد كان قبل دخول الإسلام بيتاً للأصنام. فلما جاء المسلمون إلى دلهى

حطموا الأصنام التى كانت فيه ، وحولوه إلى مسجد . أما جدران المسجد وسقفه فقد كانت من الحجارة البيضاء البديعة . وقد قيل إن الخشب لم يستعمل فى بنائه ، بل استعمل الرصاص فقط فى ربط أجزائه بعضها ببعض .



الفصل الخامس

عودة السلطان

فى يوم من الأيام قرعت الطبول ، و نفخت الأبواق ، وزينت الشوارع . فعرفت أن السلطان قد عاد من رحلته . ففرحت ، ووقفت أنتظره مع الواقفين . وأقبل الموكب يتقدمه العبيد والمشاة . لقد نصبت الهوادج فوق ظهور الأفيال ، واكتست بالحرير والديباج ، وجلست بداخلها



وسار الموكب على هذا الحال حتى وصل إلى بوابة القصر

الراقصات والمغنيات . وراح أتباع السلطان ينثرون الدنانير ويوزعون الأموال . وسار الموكب على هذه الحال حتى وصل إلى بوابة القصر، فوقفت برهة ، ثم عدت إلى الدار أفكر . ماذا أفعل ؟ يجب أن أقابل السلطان .

سألت حاجب الغرباء فقال لى : لا بد لكل غريب يريد مقابلة السلطان أن يقدم له هدية تناسب المقام . فتحيرت فى أمرى : من أين أجىء بالمال ؟ وكيف أشترى هدية السلطان ؟ فقيل لى إن فى المدينة تجاراً كثيرين مستعدين لهذا العمل . إنهم يشترون الهدية لمن يريدها، ثم يستردون ثمنها بعد أن يقبض الشخص مكافأة السلطان . فأسرعت إلى تاجر من هؤلاء، فاشترى لى ثلاثين فرساً وجملا وبعض المماليك

وفى اليوم الذى حدد لى لمقابلة السلطان لبست أحسن ثيابى ، وسرت بهديتى إلى القصر ، فوجدت فى ساحته وفوداً كثيرة تنتظر الدخول . كان السلطان رجلا كريماً يحب الغرباء ، ويعطيهم ، ويحسن إليهم ، ويسميهم الأعزة .

وكان حجاب القصر يدخلون الأشخاص على السلطان حسب رتبهم ودرجاتهم . فلما جاء دورى تقدمت من باب القصر ، فقرعت الطبول وصاح الحاجب : جاء فلان ابن فلان . وكانت هذه عادتهم إذا زار القصر أمير أو كبير .

وتقدمت بعد ذلك إلى الباب الثانى والثالث ففعل الحجاب مثل ما فعلوا عند الباب الأول . وبعد الباب الثالث وجدت نفسى فى قاعة واسعة جدرانها مزينة بالنقوش والصور . ووقف عن يمينى وشمالى صفان من الأفيال يبلغ

عددها حوالى خمسين فيلا . وكانت جميعها مزينة بأفخر الأقمشة وعلى ظهر كل منها رجل بيده عصا من حديد .

سرت بين الفيلة حتى وصلت وسط القاعة فارتفع صوت يصيح : باسم الله . وفجأة رأيت الفيلة قد ركعت جميعها على الأرض تحيي الزائر . ونظرت فى صدر القاعة فرأيت السلطان نفسه . كان يجلس على مصطبة مفروشة ، وقد وضع مخدة عن يمينه، وأخرى عن يساره ، وثالثة وراء ظهره . ووقف خلفه الحراس ، وقد حمل كل منهم منشة يطرد بها الذباب عنه .

فتقدمت منه باحترام وسلمت عليه ، فأخذنى من يدى وصافحنى وقال : أهلا وسهلا بك قدومك مبارك .

ثم أخذ يسألنى عن بلادى وأحوال أهلها ، فأجبته عن كل ما سأل . وفرح بى كثيراً، وجعلنى من يومها مرافقاً له . فصرت أتردد عليه فى كثير من الأوقات ، وأقضى معه الساعات أقص عليه ما شاهدته فى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها من بلاد المسلمين . وكنا كذلك نتباحث فى أمور الدين . فأعجب بى وعيننى قاضياً فى دار الملك ، وخصص لى مرتباً قدره اثنا عشر ألف دينار فى السنة ، وأمر بصرفها لى فى الحال .



الفصل السادس

غرائب

وبقيت يا مولاى فى خدمة السلطان مدة طويلة نلت فيها شهرة واسعة ومالا كثيراً. وشاهدت فى بلاده كثيراً من العجائب والغرائب . رأيت فيها نهراً اسمه نهر الكنج يقدسه الهنود، ويقولون إنه من أنهار الجنة ، ويرمون بأنفسهم فيه تقرباً إلى «كساى» وهو

اسم الله بلغتهم. فاذا مات الشخص أخرجوه، وأحرقوا جثته، ثم ألقوا برمادها فى النهر.

وللسحر فى هذه البلاد أهمية كبيرة. وللسحرة الهنود قدرة عجيبة على الصبر والتحمل. فان أحدهم مثلا يستطيع أن يبقى بدون أكل أو شرب عدة أشهر. وبعضهم يدفن نفسه تحت الأرض ولا يترك له إلا منفذاً صغيراً لدخول الهواء. ثم يبقى بعد ذلك فى مكانه عدة شهور بدون طعام أوشراب. وقد علمت أنهم يصنعون أنواعا من الحبوب إذا أخذ منها الإنسان حبة واحدة أغنته عن الأكل أياماً كثيرة. وكان السلطان يحب هؤلاء السحرة ويحترمهم.

وقد شاهدت بنفسى مرة حادثة لا زلت أذكرها.

فقدبعث إلى السلطان فى يوم من الأيام . فدخلت عليه ووجدت عنده اثنين من السحرة، فعرفهما بى، وطلب منهما أن يقوما ببعض الألعاب أمامى . وفى الحال تربع أحدهما وأخذ صاحبه يتمتم بكلام غير مفهوم . وإذا بالرجل المتربع يرتفع عن الأرض شيئاً فشيئاً حتى صار معلقاً فى الهواء فوقنا . فخفت ، واشتد خوفى ، ثم أغمى على ، ولم أدر ما حصل . ولكننى عندما أفقت رأيت الرجل لا يزال معلقاً فى الهواء على حاله . فأمره صاحبه أن ينزل فرفض . فأمسك نعلا وضرب به الأرض، فارتفع النعل إلى رقبة المتربع وأخذ يضربه ، فبدأ المتربع ينزل قليلا قليلا حتى وصل إلى الأرض وجلس معنا . فقمت من عند السلطان وأنا أرتعد مما رأيت .

ورأيت في الهند غير هذا من العجائب والغرائب الشيء الكثير. إلا أنني يا مولاي مللت حياة النعيم، فتركت خدمة السلطان، ووزعت جميع ما أملك على الفقراء والمعوزين، حتى ثيابي التي كنت ألبسها أعطيتها لأحد الفقراء ولبست ملابسه.

وأقمت عند أحد الشيوخ الأتقياء خمسة شهور كان السلطان خلالها غائباً عن البلاد. فلما عاد وعلم بزهدي في الدنيا استدعاني، فدخلت عليه وأنا في زي الفقراء. فكلمني وطلب مني أن أعود إلى خدمته. فرفضت واستأذنته في السفر إلى الحج. فتردد، ثم أذن لي. ولما انصرفت من عنده نزلت بزاوية للشيوخ وأقمت فيها لأصلي وأقرأ القرآن. ولما أكملت أربعين يوما طلبني

السلطان ، وبعث إلى بخيل وجوارى وغلمان وثياب ونفقة. فلبست ثيابى الجديدة وقصدته. فقال لى :

ـ لقد بعثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين، فإنى أعلم حبك للسفر.

فلم أتردد فى قبول العرض مع إننى كنت أعلم خطورة الطريق.

والسبب فى هذه الزيارة أن ملك الصين كان قد بعث إلى السلطان بهدية، وطلب منه أن يأذن له ببناء بيت للأصنام فى بلاد الهند. فلما وصلت الهدية إلى السلطان كتب إليه يقول إن هذا الطلب لا يجوز فى بلاد الإسلام.

وأراد السلطان أن يرد لملك الصين هديته بأحسن منها. فجهز له الخيل والمماليك والراقصات والمغنيات



فأخذنا الهدية وسرنا متجهين إلى بلاد الصين

والثياب الحريرية والشمعدانات الفضية والذهبية وخلعاً من ثياب السلطان المزخرفة وقطعاً من الشاش المرصع والجواهر وغير ذلك .

وبعد أن تهيأت للسفر أرسل السلطان معى ألف فارس . فأخذنا الهدية وسرنا متجهين إلى بلاذ الصين . وسرنا فى طريق وعر مخيف يسكنه الكفار . وكانوا دائماً يعتصمون بالجبال ، ويشتبكون مع المسلمين فى القتال . وفى يوم من الأيام وصلنا إلى مدينة كان القتال يدور فيها بين المسلمين والكفار ، وكان لا بد لنا أن نشتبك معهم . فطاردونا وطاردناهم ، وتفرق أصحابنا وراءهم ، ووجدت نفسى وحيداً مع خمسة من الفرسان فقط . وخرج علينا عدد من الرجال فهربنا منهم واختفيت . ولما خرجت وجدت نفسى



فارتميت على الأرض

وحيداً فى أرض كثيرة النبات والشجر . وإذا بأربعين رجلا يحيطون بى ، فارتميت على الأرض . وكان من عادتهم أن من يفعل ذلك لا يقتلونه . فسألنى أحدهم :

ـ من أنت ؟

فقلت : فقير مسكين .

فقال : لا يبدو عليك الفقر . لا بد أنك من خدم السلطان ، ويظهر عليك أنك مسلم .

فقلت : كلا لست من خدم السلطان .

فقال : ولكنك مسلم .

فقلت ، وأنا أرتجف : نعم .

فسرقوا كل مامعى ، وأخذونى إلى رئيسهم ، فأمرهم بقتلى وكان أحدهم شاباً حسن الوجه ، جاء إلى فى الصباح وقال :

ـ أتريد أن أعفو عنك وأطلق سراحك ؟

فقلت متلهفاً : إى والله ! يرحمك الله .

فقال : خذ ملابسى هذه ، وأعطنى ملابسك .

فخلعت ملابسى الفاخرة ، ولبست ثياب الكافر ، وأخذت أعدو بكل ماعندى من قوة حتى لا يغير المشرك رأيه ويلحقنى . وكنت كلما رأيت جماعة من الأعداء اختفيت بين الأشجار . وظللت على هذه الحال ثمانية أيام ؛ ثمانية أيام لم آكل فيها سوى ما أجده من ثمار الشجر .

وفى آخر يوم عطشت عطشاً شديداً فرأيت بئراً ليس حولها أحد ، فذهبت إليها ووقفت حائراً أمامها كيف أخرج الماء ؟ هل أنزل إلى البئر ؟ ولكننى ضعيف . وخطرت لى فكرة أخذت عمامتى وربطتها بحبل ،

ودليتها فى البئر ، وانتظرت حتى ابتلت وسحبتها وعصرتها فى فمى ، ولكنها لم ترو عطشى . فربطت حذائى ودليته فى البئر ، وعندما امتلأ سحبته فسقط لأننى لم أحكم ربطه جيداً . فأخذت الحذاء الثانى وربطته ربطاً محكما ودليته فى البئر ، واستخرجت به من الماء ما سد حاجتى .

وجلست بعد ذلك على حافة البئر وقلت : الحمد لله . وإذا بصوت يقول : السلام عليكم . فالتفت ، وإذا برجل يقول لى : يبدو أنك مسلم ، وأنا مسلم كذلك . من تكون أيها الأخ ؟ .

فقلت : رجل ضل الطريق

فقال لى : تعال معى . فسرت معه ؛ ولكننى شعرت

بالتعب، ولم أستطع أن أواصل السير. فحملنى الرجل على ظهره ومضى بى. فنمت. ولم أشعر إلا وأنا فى بيت شيخ فى إحدى القرى. أما الرجل الذى حملنى فلم أجد له اثراً.

وبقيت عندهذا الشيخ حتى استرجعت صحتى وقوتى. فعدت إلى جماعتى، ففرحوا بى وجاءونى بفرس وثياب، وناولونى رسالة من السلطان. يطلب منى فيها أن أواصل السير إلى بلاد الصين. فلما رأيت عناية السلطان بأمرى قويت عزيمتى وجمعت أصحابى وعاودنا السفر متجهين إلى بلاد الصين.

هذا يا مولاى بعض ما رأيت فى بلاد الهند، فان سمحت لى عدت إليك فى الغد لأقص عليك تتمة الرحلة

فى بلاد الصين .

ـ حسناً يا أبا القاسم ، عد إلينا غداً فى مثل هذا الوقت، ودعنا نستمتع بقصصك الشائقة ورواياتك اللطيفة .

ـ استودعكم الله يا مولاى .




مركز التربية الأساسية
في العالم العربي

